الأَديبْ و المُفَكِّرْ الرَّاحِل
رَمَضان عَبْدِ الرَّحْمن لاوَنْدْ
برنامج هل تعرفني؟

أميـــن الريحـاني

مؤثرات موسيقية.........

من نحيت الصخر خلقت إرادتي. ومن ألوان الطبيعة البكر ولد خيالي. ومن بساطة الصحراء وشفافيتها تمّت لي عناصر إيماني بالله. سمّيت فيلسوفاً والواقع أنيّ لم أبلغ مبلغ الفلاسفة، اللهم إلا اذا أريد بكلمة فلسفة ظاهرة التأمّل في الله والأديان والكون والإنسان. والفلسفة كما هي في تقديري شيء أشمل وأدقّ وأعمق أثراً في النفس. وقد أصدرت من الكتب والرسائل ودبجت من المقالات ما كنت أضع فيه خلاصة تجاربي وصادق تأمّلاتي.. ولعلّكم تشاركونني الرأي في أنّ التعريف بالأديب لا يصحّ أن يكون بِرشّ الأفكار هنا وهناك، بل بالعرض المنظم الخاضع لمنهج دقيق. فتعالوا نبدأ من البداية..

ضربة موسيقية.............

- أنا من مواليد قرية "الفريكة" قرب بلدة "ضهور الشوير" من لبنان.. خرجت إلى الدنيا عام 1876م وودّعتها عام 1940، وحقّقت بينهما ما يمكن أن يحقّقه إنسان يعيش من أجل البحث عن الحقيقة. ولئن لم أبلغ فيها غير الذي بلغت، ويعرفه من قرأ ترجمة حياتي، فالذنب ليس ذنبي. فلا يكلّف الله نفساً إلّا وسعها. والدنيا من بعد ميدان لكلّ العقول،بها تتكامل وحدتها. ولكلّ عقل منها مكانه الذي اختارته له يد صنّاع وهندسته له إرادة إلهية. وعلى ذلك فأنا لم أكن استثناء من البشر، ولا كان عقلي بدعاً من العقول. هكذا صاغتنا يد الله.. وبهذه اليد القوية الكريمة المعطاء اجتزنا مرحلة الحياة والأحياء.

ضربة موسيقية.......

حين بلغتُ السادسة من عمري أرسلت إلى مكتب الكنيسة لأتعلّم القراءة والكتابة. وقد أظهرت منذ سنوات حياتي المبكرة رغبة شديدة في الدرس والتحصيل بحيث استظهرت مبادئ العربية والفرنسية. حتى

تم تحميل هذا الملف من مكتبة الأديب الراحل رمضان عبدالرحمن لاوند (سيّد المنابر) www.RamadanLawand.com
مع الاحتفاظ بكامل حقوق الطبع و الملكية الفكرية ،لمزيد من المعلومات يرجى مراسلتنا: info@RamadanLawand.com

إذا بلغت الحادية عشرة من عمري رافقت عمّي إلى أميركا فبلغتها عام 1888م، والتحقتُ فيها بمدرسة لم ألبث أن تركتها بسبب حاجة والدي إليّ في الإشراف على تجارته وتجارة عمّي في الوقت نفسه.

ولا أخفي عليكم أنّه قد شقّ عليّ الانفصال عن المدرسة. فأدرت في ذهني أفكاراً كثيرة للتوفيق بين هوايتي وبين التجارة التي يعزّ بوارها على أبي، فلم ألبث حتى وضعتُ لنفسي منهجاً دراسياً في اللغتين العربية والانكليزية. قرأت في العربية قراءة درس وتمحيص كلاً مِن: ابن خلدون، وحضارة الإسلام، ونهج البلاغة، وتاريخ مصر لجورجي زيدان، ثمّ كتباً في علم النفس والحيوان والنبات والطبيعة وغيرها. وقرأتُ في الانكليزية لخيرة الأدباء والعلماء: داروين، وسبنسر، وفولتير وهوغو. وبقيتُ على هذه الحال خمس سنوات أشقى في الليل وفي النهار. طوراً مع الكتاب وطوراً آخر مع التجارة، حتى أعطتني العربية مقادها وكذلك الانكليزية..

ضربة موسيقيـــــة.......

وطبيعيّ أنّني لم أقف عند هذه المرحلة من الدرس والتحصيل. فقد تاحت لي فرصة طيّبة لأدرس في مدرسة للتمثيل أتقنتُ فيها فنّ الإلقاء ثمّ التحقتُ بإحدى كليّات الحقوق في نيويورك. وما زلتُ على هذه الحالة أعملُ دون هوادة حتى اعتلّت صحتي ونصحني الأطباء بالعودة إلى لبنان. وقد عدتُ فعلاً إليه بعد غيبة استمرّت عشر سنوات. وفي أثناء إقامتي في مسقط رأسي تزوّدت بالجديد من آداب العربية وأصولها اللغوية ورحتُ أكتب فيها مسجّلاً الخواطر التي تخطر لي، كما ترجمتُ بعض شعر أبي العلاء المعرّي من اللزوميات إلى الانكليزية. وقد نشرتُ هذه الترجمات في كتاب سمّيته "رباعيّات المعرّي" فاستقبله الناس هناك استقبالاً حسناً.

ضربة موسيقية......

ومنذ ذلك التاريخ، قضت إرادة الله أن أتنقّل في بلدان كثيرة أعود خلال تنقّلاتي بينها على لبنان، مضيفاً في كلّ رحلة من رحلاتي تجارب جديدة ونظرات كنت أظنّها جديرة بالتسجيل. زرت فرنسا وانجلترا واسبانيا ثمّ طفتُ في مصر وبلاد العرب والمغرب، وعملتُ مراسلاً لبعض الصحف الأميركية في أثناء الحرب العالمية الأولى وتزوّجت عام 1916م من فتاة أميركية أديبة تتقن التصوير والرسم. وفي عام 1921م غادرت أميركا إلى لبنان معرّجاً على مصر حيث احتفى بي الناس هناك، ثمّ قضيتُ في الحجاز واليمن ونجد والكويت وبغداد فترات طويلة مجزّئة، واتصلتُ بالملوك والأمراء من قادتها. وذهبت مرة جديدة إلى إنجلترا وأميركا. حتى إذا كان عام 1928 عزمتُ على الاستقرار في لبنان. ثمّ فارقت دنياكم عام 1940م وقد تخلّلت إقامتي في بلدي زيارة خاطفة قمتُ بها لأميركا كمحاضر زائر..

ضربة موسيقية...

طبعا أنتم لم تعرفوني بعد كلّكم. وفي هذه المناسبة يهمّني أن أقول لكم الملاحظات التالية:

كنتُ أولاً أنزع إلى الحرية فلا أرضى أن تُغتال عقول الناس.

وكنتُ ثانياً من المنادين بالتسامح الديني فلا أرضى أن يتقاتل الناس تحت شعارات التعصّب الطائفي المقيت، وكم حملتُ على دعاة الشقاق باسم المصالح الطائفية.

وكنتُ ثالثاً مؤمناً بالله وباليوم الآخر وإن غاضبتُ رجال الكنيسة ونفضتُ يدي منهم.

وكنتُ رابعاً كثير التفاؤل مطمئنّاً إلى المستقبل رغم كلّ العقبات والنذر الظاهرية، ورغم المرض العصبي الذي لازم إحدى يديّ طيلة خمسة وثلاثين عاماً.

ضربة موسيقية.......

- أمّا ثقافتي فقد نهلتُها من ينابيع الفكرين الغربي والعربي.. أتقنتُ الكتابة باللغتين العربية والانكليزية. ووضعتُ فيهما كليتهما كتباً ورسائل ومقالات. أعجبتُ بمسرحيات شكسبير وبآراء داروين وبفلسفة هكسلي الشكّاكة وبسخرية فولتير.. وكلّ هذا في رأيي لا يضاهي ما حقّقته لي الأسفار والاتصالات بالبشر من كلّ شعب في كلّ أرض هبطت إليها. كنتُ أجد الفائدة حين أحدّث الملوك كما أجدها حين أحدّث العامّة. وكنتُ أفيد خبرة من الشعوب التي بلغَت قمّة التقدّم، كما أفيد من الشعوب التي كانت ما تزال في مرحلة البداوة. لقد كانت كلّ أرض وكان كلّ إنسان بمثابة اللوحة الحافلة بالمنافع والفوائد خلقتها يد الله ونمنمت أجزاءها وزرعتها بالأسرار والرؤى الجميلة الخصبة.
- كنت أسافر ثم أكتب. ثم أعود إلى السفر حتى إذا قضيتُ منه وطراً عدتُ إلى الكتابة، تماماً كما يفعل الحيوان المجترّ كلّما ملأ معدته الإضافية بالعشب جلس القرفصاء يطحن الغذاء الإضافي ويعتصر مادته حتى يأتي عليه. وكما أنّ الحيوان المجترّ لا يحتفظ بوجوده ما لم يحتفظ بعاداته في الاجترار فكذلك أنا لم أكن أشعر بقوة الحياة وجمالها وفائدتها ما لم أعتصر المشاهد والخبرات والصور التي أواجهها لأخرج منها بموقف جديد هو توكيد للحياة التي كنت أحب.

ضربة موسيقية..........

- في ضوء ما رسمته لكم من حياتي كان من الطبيعي أن يتنوّع إنتاجي ويخصب. فقد تركت ورائي كتابات كثيرة في العربية والانكليزية: قصصاً ومقالات وأبحاثاً علمية وشعراً. أمّا في العربية فقد تركتُ ورائي

الآثار التالية: التساهل الديني، والثورة الفرنسية، والمكارم والكاهن، والمحالفة الثلاثية، ثم ديواني "المر والريحان" وكتاب الريحانيات ثم مسرحية "عبد الحميد" وقصة "زنبقة الغور" وملوك العرب وقلب العراق وقلب لبنان وغيرها ممّا تجدون أخباره في المظان التاريخية.. وأمّا في الانجليزية فقد تركت: ابن سعود ونجد، وحول الشواطئ العربية، وبلاد اليمن، عدا عشرات المقالات في كبريات الجرائد الأميركية.. ولا أنسى أن أخبركم أنّ المجمع العلمي بدمشق انتخبني عضواً مراسلاً له في أميركا عام 1921م.

ضربة موسيقية.....

- قد تعتقدون أنّ تفكيري من طراز التفكير الهجري الذي تميّزت به جمهرة أدباء الاغتراب في أميركا. العكس هو الصحيح. فالحقيقة أنّني لم أحرق الجسور ورائي ولم أقطع صلتي بالقديم ولم أثُر علي تقاليد الأدب العربي. لقد كنتُ أحرّض قومي على النهضة، ولكنّني كنتُ أريدها نهضة نابعة من التراث لا شيئاً مفروضاً من الخارج. لقد أحببتُ أرض بلادي العربية ورغبتُ دائماً في الاتصال بقادتها وشعوبها، أرفض التنكّر لهؤلاء أو لأولئك.. وهذا هو السرّ في أنّني لم أكن عضواً في الرابطة القلمية التي أسّست في نيويورك عام 1920 من قبل أدباء المهجر وشعرائه.
- الظلم الذي كان يتحدّث عنه المغتربون والآلام التي يردّدون ذكرياتها في شيء من الحماسة لم أكن أعرفها. غادرت مسقط رأسي وأنا بعد صغير السن فلم أدرك ما كانوا يذكرونه في مجالسهم. والواقع أنّني كنت أستبينُ صور المبالغة وآثار الانفعال فيما كانوا يردّدونه. وأنا بالطبع لا أحبّ هنا أن أتّهم أحداً بالتحامل لأنّني أدرك معنى الألم وآثاره.. ولكنّني في الوقت نفسه أدرك مضاعفات الحماسة وسوء الحظ الذي يرافق الضعفاء من الناس والحكّام والبلدان..
- كنتُ أحاول أن أفهم لا أن أنتقم. وكنتُ أطمح إلى التصحيح والمناقشة الهادئة أو المتحمّسة، لا إلى التحطيم والتخريب. ذلك لأنّني أثق بالإنسان أشاركه في حزنه وفرحه وأقدّر أسباب إخفاقه..

ضربة موسيقيـــــة....

- كلّ شيء كان يلفت نظري: البائع المتواضع في دكّانه، وطريقة التسويق في ميدان التجارة، والهندام الذي يبدو على جاري، وطريقة الكلام والحديث عند المرأة والرجل، والأخبار التي تنقلها الصحيفة، والنظام أو الفوضى في الشارع، وعادات الناس في الأرياف والبوادي، وتصرّفات الملوك والأمراء، وسلوك الموظف في الدولة، والأزمات النفسية التي تأخذ بمخنق صاحبها. وكنت من خلال ذلك أبحث عن

الحقيقة وحسب. أنقل الصورة التي تقع عليها عينيّ بدقة وأمانة لا أهمل صغيرة أو كبيرة. وكما شاقتني مشاهد العمران في أميركا فقد أثارت إعجابي جوانب الحياة في الجزيرة العربية حيث نزلت منها.

كانت بلاد العرب وطناً لي ما وقع منها على شاطئ الأطلسي وما امتدّ منها عند مياه الخليج. يؤلمني ما كان يعانيه أبناء المغرب من عدوان مستمر، وتدفعني الرغبة في أن أفعل شيئاً مفيداً من أجل أبناء الجزيرة العربية. كان شعاري الذي أردّده دائماً: "أنا عربي شرقيّ بروحي، إخواني وإن قلّ عددهم كثيرون، سلاحنا كلمة نقولها وبذرة نزرعها في قلوب الناس"..........

ضربـــــة موسيقيـــــة.......

- قيل إنّني أجيد الوصف، وأنّني أتميّز بالحسّ الدقيق والشعور المرهف والملاحظة القوية والخيال المجنّح والعبارة السهلة والحزن أمام مناظر البؤس والفاقة.
- فإذا صحّ هذا القول فلا غرابة فيه. السبب في ذلك هو أنّني تحرّرت من ضلالات الحيرة وتمويه الغرور ومن الإحساس بالغربة عن الناس.
- الناس في بلادي كما في كلّ بلدان العالم يحملون ما أجمل من العواطف والانفعالات. إنّهم يبحثون عن الأمن ويسعون إلى الاستقرار ويريدون السلام ويعانون من الخوف، ولكنّهم لا يدركون مصادر هذا الخوف فهم يخطئون في تعيين سببه وفي توجيه الاتهام إلى مصدره. من أجل ذلك أحببت هؤلاء الناس وحاولتُ أن أشاركهم العيش وأن أفهم حقيقة ما عندهم. فما أغضبني سوء التصرّف عند بعضهم، وكم سرّني أن أكتشف مواطن الخير عند البعض الآخر.

ضربة موسيقيـــــة...

- أمّا الأرض، أرض وطني، وأمّا الشجر في البستان والسنابل في الحقل والعشب في السهل الأفيح الواسع فقد كنتُ أجد فيها غير ما أجده في سهول غيره من الأوطان وفي شجرها وسنابلها. وكم عقدتُ المقارنات بين غابتي كاليفورنيا والأرز رغم الفارق الكبير في الحجم. اسمعوا بعض ما قلته في تلك المقارنة:

"دخلتُ الغابة التاريخية القدسية، وأنا أتلمّس في سكينتها الرهيبة موطئاً للقلب الهائم، ومحراباً للروح الخاشعة، سكينة يحتضنها الجبل، ويعطّر جوانبها الأرز. سكينة تتهادى تحت الأغصان، فتجرّ الأذيال على ما تناثر منها، فتحدث صوتاً ولا صوت النسيم في السحر، صوتاً هو الهمس، السهل الممتنع الذي تجثو له بواسق

البلاغة والبيان. وقفتُ في ذلك الهيكل تحت القبّة الخضراء وبين العمد السامقة، أعفر في تراب السكينة وجه الشك، وأمسح بعطرها عين الشوق، وأرهف لهمسها أذن الحب والغفران"..

أمّا في غابة كاليفورنيا فقد قلت:

في أحراج كاليفورنيا أشجار تفوق أرز لبنان قدماً وكبراً، وقد حفرت في جذورها طرق كأنّها أنفاق، ولكنّ أشجار كاليفورنيا، وهي من عجائب الدنيا، إنما هي جماد هائل لا سرّ فيها ولا معنى لها، هي عظيمة ولكنّها صمّاء بكماء، هي قديمة ولكنّها عقيمة لا قصة لها ولا تاريخ، لم يعش في ظلها نبي، ولا تغزّل بها شاعر. إنّ عظمة تلك الأشجار مادّية محض، وشهرتها لا تتجاوز بلادها، وعِلم العلماء والسياح"..

أرأيتم إلى الفارق بين الغابتين؟ هكذا كنت أحسّ أمام كلّ منهما. ففي الأرز قصة حياة الوطن في كفاحه وانفعاله وتضحياته وانتصاراته، وفي غابات كاليفورنيا قصة المادة التي خلت من أنفاس البشر وأطماحهم وعقائدهم الكبيرة.

ضربة موسيقية.....

- هل عرفتموني بعد كلّ الذي أنبأتكم به من شؤون وشجون؟ إذا كان بعضكم لم يعرفني بعد، فأنا أمين بن فارس الريحاني الملقّب بفيلسوف "الفريكة"........

موسيقى النهاية.............